الاعشى الاكبر (٦٢٢ او ٦٢٩م)

بقلم الاديب ميشيل سليم كميد

٢

شعره وما يمتاز به

مما يمتاز به الاعشى عمن سبقه من الشعراء ، ومن عاصره ، ومن عقبه ، الى الآن ، قصيدة تشابه في جزء منها ما اخترعه الاغريق ، وتابعهم عليه الرومان ، في الشعر القصصي اي الملاحم . فان صحّت نسبة هذه القصيدة ، يكون قد بذّ الشعراء العرب وفاز عليهم ، واتى بشيء لم يكن عند العرب به علم(١

١) لقد عرّب العرب كتباً جمة عن اليونانية ، فلا شك ان اودية هوميروس أو الياذته وقعت بين ايديهم . ولسنا نعلم لماذا لم يخطر لهم ، ان ينافسوهم في هذا الميدان. ألاحتقارهم هذا الفن من الشعر القصصي ؟ أم لظنهم ان هذا لا يفيدهم ؟ وهم قد اخذوا عن الاغريق ، كل ما وجدوه يفيدهم فائدة ما . من الفلسفة لدعم اسس الدين. ومن العلوم الاخرى المختلفة لاجل فائدة الدولة . ولم ينظروا الى الآداب اليونانية بعين الاعتبار ، بل ضربوا بها عرض الحائط . وتوهموا ان كل ما تحتوي عليه اللغات الاجنبية من آداب غير جدير بالتفاتهم والاعتناء به ، وهذا منتهى الطغيان والعجرفة . وذلك لضيق مخيلتهم ولطبع التعصّب الذي فيهم ، وتخيلهم ان العربية كاملة اتم الكمال ، فهي غير محتاجة الى النقل عن غيرها والاقتداء به. وضربت الاستر على بصيرتهم ، فخمعوا في جهالتهم وضلالتهم ، وعميت ابصارهم عما تكنه تلك الكتب ، وتضمنه بين طيّاتها من آداب راقية في الملاحم والروايات التمثيلية

أما ابيات الاعشى ، فسببها انه هجا رجلًا من كلب ، وسبّ الناس الكلبيّ بذلك ، فتغيّظ عليه واتفق ان اغار على قوم ، وأسر منهم نفرًا ، ومنهم اذ ذاك الاعشى ، وهو لا يعرفه . وجاء به ، حتى نزل بشريح بن السموأل بن عادياء ، صاحب تيماء . وصادف ان مرّ شريح بالاعشى ، فناداه هذا واستجار به بهذه القصيدة التي منها :

كن كالسموأل ، اذ طاف الهمامُ به ... في جحفلٍ ، كهزيع الليل جرّارِ
اذ سامه خطّتي خسف ، فقال له : ... قل ما تشاء ، فاني سامعٌ حارِ
فقال : غدر وثكل انت بينهما ... فاختر ، وما فيهما حظٌّ لمختارِ
فشكّ غير طويلٍ ، ثم قال له : ... اقتل اسيرك ، اني مانعٌ جاري .
انا له خلفٌ ان كنت قاتله ... وان قتلت كريمًا غير خوّارِ
فقال عندمًا ، اذ قام يقتله : ... أشرفْ سموأل ، فانظر للدم الجاري
أأقتل ابنك صبرًا ، أو تجيء به ... طوعًا ؟ فأنكر هذا ايّ انكارِ

هنا نجد الاعشى يصف قصة السموأل مع الحارث بن ابي شمر الغساني ، حين حاصر الاخير الاول ، في حصنه الابلق ، لاجل دروع كانت لامرئ القيس ، تركها وديعة عنده . واختار السموأل تضحية ولده في سبيل الوفاء ، وحفظ العهد والجوار . وذكر الاعشى لهذه القصة في غاية الاقتضاب والايجاز — كجميع شعراء الجاهلية ، فحبّهم له يماثل شغف وتعشق الافرنسيين بالايضاح — وهو قد قصد من ذلك ، أن يبلغ مأربه ، وينجو من قبضة عدوه . ومهما يكن فقد صادفه هذا عفوًا ، واتى بما يشبه الملاحم عن غير قصد منه . وكثيرًا ما يوجز غاية الايجاز في اشعاره ، ويأتي فيها من البيان سحرًا . كقوله :

اذا انت لم تُرحَلْ بزادٍ من التُّقى ... ولاقيت بعد الموت ، من قد تزوّدا

وغيرها مما شعرنا بالحاجة اليه ، في منصرم القرن الماضي ، ومستهلّ هذا القرن . ووجدنا انفسنا في تأخر عن مستوى الشعوب المتمدنة . فهذا الجمود ، وهذا التعصب الاعمى ، حرما آداب لغتنا الكريمة ، ان تستمدّ بعض انوار مشرقة ، وفنون ممتازة ، من اللغات الاجنبية !

ندمتَ على ان لا تكون كمثله وانك لم ترصدْ كما كان ارصدا .

فهنا نصح بالفعل الحسن والتزوّد بالاعمال الصالحة ، واتى على ذكر الموت ، وما يلاقي بعده الانسان الفاعل الخير ، وذكر ما يعتوره اذ ذاك من الحزن والندم . اتى على وصف كل ذلك في بيتين من الشعر وهذا غاية الابداع والايجاز . واكثرية شعره على هذا النمط البديع . وله القصيدة اللامية المشهورة التي عدّها بعضهم في جملة المعلقات السبع ، مطلعها :

ودّعْ هُريرة انّ الركب مرتحلُ وهل تُطيقُ وداعًا ايها الرّجلُ

• • •

كلّا ! زعمتم بانّا لا نقاتلكُم انا لاناكم يا قومنا قُتُلُ
نحن الفوارسُ يوم الجنو ضاحيةً جنبَي نُطَيسة لا ميل ولا عُزُلُ
قالوا : الطراد ! فقلنا : تلك عادتنا ! أو تنزلون فانا معشرٌ نُزُلُ
قد نخضبُ العيرَ من مكنون فائله وقد يُشيط على ارماحنا البطلُ !

موته

لا غرابة ان لا نعرف تاريخ موته ، فهو كجُلّ شعراء الجاهلية ، بل كلهم ، لا نقدر ان نحدّد زمن موتهم ، فكل قصّاص روى شيئاً ، وقيّد ما عنّ له أو ما تُحدّث به امامه ، أو نسي زمن حادثة حصلت للشاعر قضى بها ، فكتب ما ظنّه اقرب للحقيقة . فالاعشى ، روى بعضهم عن وفاته قبيل الهجرة بزمن ، وبعضهم ذكر موته بعدها وفي السنة السادسة ، ومنهم من توسط المسألة ، وأراد حلّ المشكلة ، فجعلها في اوان الهجرة .

واننا نجد انه من العبث ، بل من المحال ، ان يبحث المرء عن زمن موت احد الشعراء في تاريخ العرب ، مهما كان الرجل عظيماً ، أو ان يبحث عن حادثة ، اكي يستخلص حقيقة ، أو يستنتج فائدة ما . فيذهب تعبه ؛ وما قاساه من العنت والبرح في هذا السبيل بلا جدوى ، فالعرب قد قصروا في ترجمة فلاسفتهم وعلمائهم وشعرائهم حتى خلفائهم تقصيراً عظيماً .

ولنعد الآن الى الاعشى ، ولنرَ ماذا روى الرواة عن موته ، فقد ذكر هشام بن القاسم ، وكان علّامة بامر الاعشى ، انه وفد الى نبيّ المسلمين وقد

مدحه بقصيدته التي اولها :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وعادك ما عاد السليم المسهدا
ولكن ارى الدهر الذي هو خائنٌ اذا اصلحت كفّاي عاد فأفسدا

. . . .

ألا أيّهاذا السائلي اين يممتْ فانّ لها في اهل يثرب موعدا
فان تسألي عني فيا ربَّ سائلٍ حفيٍّ عن الاعشى به حيثُ اصعدا

. . . .

فآليتُ لا ارثي لها من كلالةٍ ولا من حفى حتى تزور محمّدا
نبيٌّ يرى ما لا ترون وذكرُهُ اغار لعمري في البلاد وانجدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشمٍ تراحي وتلقي من فواضلهِ يدًا
له صدقاتٌ ما تنبُّ ونائلٌ وليس عطاء اليوم مانعهُ غدًا (١ . . . الخ

وبلغ خبره قريشاً ، فرصدوه على طريقه ، وقالوا : « هذا صناجة العرب ما مدح احدًا قط إلا رفع قدره». فلما ورد عليهم قالوا له :« اين اوردت يا ابا بصير ؟ » قال : « اوردت صاحبكم هذا لأسلم . » قالوا : « انه ينهاك عن خلال ويحرّمها عليك وكلها بك رفق ، ولك موافق . » قال :« وما هي ؟ » فقال ابو سفيان بن حرب : « القمار .» قال: « لعلي ان لقيته ان اصيب منه عوضاً عن القمار . ثم ماذا ؟ » قالوا : « الربا .» قال : « ما دنت وما ادنت ، ثم ماذا ؟ » قالوا :« الخمر . » قال :« اوّه ، ارجع الى صبابة قد بقيت في المهراس ، فأشربها . » فقال له ابو سفيان :« هل لك في خير مما همت به. » قال :« وما هو ؟» قال :« نحن وهو الآن في هدنة ، فتأخذ مائة من الابل وترجع الى بلدك سنتك هذه ، وتنظر ما يصير اليه امرنا ، فان ظهرنا عليه كنت قد اخذت خلفاً ، وان ظهر علينا ، اتبعته . » فقال : « ما اكره ذلك.» فقال ابو سفيان : « يا معشر قريش هذا الاعشى . والله

١) ذكر هذه القصيدة الدكتور طه حسين في كتابه « في الادب الجاهلي » في معرض كلامه عن الاعشى ، صفحة ٢٥٨–٢٥٩ . وانتقدها وابان فسادها ، وسخافتها . ونسب انتحالها الى زمن العصبيّة في الاسلام

لئن اتى محمدًا ، واتبعه ليضرمنّ عليكم نيران العرب بشعره . فاجمعوا له مائة من الابل . » فقطوا . فأخذها وانطلق الى بلده. فلما كان بقاع منفوحة ، رمى به بعيره ، فقتله.

هذه اظهر قصة للاعشى ؛ وكثير من كتب الادب كالاغاني والعقد الفريد محشوّة بقصص لا تحصى على هذا النحو.

ومن الفكاهات التي نسج بردتها الرواة على ذكر حبّ الاعشى للخمرة ، ان يحيى بن عليّ رأى قبر الاعشى ، بمنفوحة ، وان الشبّان اذا ارادوا ان يشربوا ، خرجوا الى قبره ، وادارروا الراح بينهم ، وصبّوا عليه فضلات الاقداح. وحدّث ابو سليمان النوفلي . قال :

اتيتُ اليمامة ، والياً عليها ، فمررت بمنفوحة ، وهي منزل الاعشى التي يقول فيها « بشطّ منفوحة فالحاجر » فقلت : « اهذه قرية الاعشى ؟ » قالوا : « نعم. » فقلت : « اين منزله ؟ » قالوا : « ذاك. » واشاروا اليه قلت : « فأين قبره ؟ » قالوا : « بفناء بيته . » فعدلت اليه بالجيش ، فانتهيت الى قبره ، فاذا هو رطبٌ : « فقلت ما لي اراه رطباً. » فقالوا : « ان الفتيان ينادمونه ، فيجعلون قبره مجلس رجل منهم ، فاذا صار القدح اليه ، صبّوه عليه لقوله : « ارجع الى اليمامة ، فأشبع من الاطيبين : القار والخمر . »

بمثل هذه الاختلاقات ، وهذه السخافات ، تتقوّل الرواة ، وتتحدّث القصّاص . وكأنهم لم يريدوا ان يكتفوا بما انتحاوه من فاسد الخبر ، وردىّ الشعر لحياته ، بل ارادوا ان يتبعوه باكاذيبهم الى حافّة القبر ، والى ما بعد الممات ، ولم يخلوا ان يقلقوا عظامه حتى في مرقدها الاخير ، ويعكروا عليه صفاء راحته الابدية . وهكذا انتهت حياة شاعرنا بين تهريف هذا ، وتلاعب ذاك ، وصار الى ما الكون اليه صائر